(شرح دعاء قنوت الوتر)

للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين

تعليق الشيخ

أ.د. وليد بن محمد العلي

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد..

فسلامُ الله عليكم ورحمته وبركاته.. وطبتم وطاب ممشاكم، وتبوأتم من الجنة منزلًا، ثم إننا معشر الحضور الكرام نجتمع في بيتٍ من بيوت الله ﷻ؛ نتدارس آي الذكر الحكيم، ونتعرف على أحاديث النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، رجاء أن تحفنا الملائكة، وتغشانا الرحمة، وأن تتنزل علينا السكينة، وأن يذكرنا الله ﷻ فيمن عنده، وأن يقال لنا في آخر مجلسنا: "قوموا مغفورًا لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات"، فهذا جزاء الوعد الكريم الذي جاء على لسان النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم في قوم اجتمعوا في بيتٍ من بيوت الله يتدارسون كتابه ويتذاكرونه بينهم.

والأمر الثاني: بعد حمد الله ﷻ، هو التوجه إلى اللجنة العلمية في هذا المسجد الذي أسأل الله ﷻ أن يجعله عامرًا بالطاعات، وعامرًا بمجالس الخيرات، وأتوجه إلى أهل هذا المسجد إمامًا ومؤذنًا ومصلين على حثهم طلبة أهل العلم على شغل أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع؛ لاسيما مجالس طلب العلم، وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ/ صالح العبدلي – وفقه الله تعالى–.

وثالثًا: أتوجه إلى وصية خولة بنت دخيل الجسار –رحمها الله تعالى برحمته الواسعة ونفع بآثار وصيتها المباركة النافعة– التي خصصت جزءً من وصيتها في خدمة علوم الشيخين:

سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز –رحمه الله تعالى–، وفضيلة الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين –رحمه الله تعالى–، وهذا من أنفع ما يعود على العبد في قبره بعد وفاته أن ينفع الله ﷻ بوصيته العلماء وطلبة العلم، وأن ينشر في الآفاق هذه العلوم النافعة.

والأمر الرابع: ما يتعلق بهذه الرسالة وهو (**شرح دعاء قنوت الوتر**)؛ وهي استفادةٌ من مجالس الشيخ التي كان يعقدها –رحمه الله تعالى–، وكان من هديه –رحمه الله تعالى– إذا دخل شهر رمضان أنه يُقيم الشهر في رحاب المسجد الحرام، وكان –رحمه الله تعالى– له مجلسان؛ مجلسٌ بعد الفجر إلى أن تطلع الشمس، وكان يُدرِّس فيه (**عمدة الأحكام**) للحافظ عبد الغني المقدسي –رحمه الله تعالى–، ومجلسٌ بعد التراويح ويستمر مدة ساعتين، وفي العشر الأواخر تحدُّه صلاة القيام، وكان يُفسر –رحمه الله تعالى– الآيات التي قرأها إمام المسجد الحرام، وهكذا هديه –رحمه الله تعالى– إلى أن قبضه الرب –جلَّ جلاله– وكان في العام الذي قُبض فيه وهو العام الحادي والعشرون بعد الأربعمائة والألف، كان –رحمه الله تعالى– قد ابتُلي بمرض السرطان، ورجع أدراجه بعد رحلة علاجٍ في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تبين استفحال المرض وانتشاره فيه، فكان طوال شهر رمضان في المستشفى في جدة، حتى إنه إذا وجد من نفسه خِفةً طلب من أولاده أن ينقلوه في الإسعاف إلى المسجد الحرام حتى يُدرِّس الدرس وهو في الحُجرة، وكان يُنقل عبر الأصوات والمكبرات إلى عموم المصلين، فهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو أحد المجالس التي كان يشرح فيها –رحمه الله تعالى– هذا الحديث، فاستخرجها بعض طلبة العلم

الفضلاء وهو الشيخ/ محمد بن صالح الحربي –وفقه الله تعالى– استخرجها ثم راجعتها اللجنة العلمية في مؤسسة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين –وفَّق الله القائمين عليها–.

وها نحن اليوم نتذاكر بعض دلائلها؛ لاسيما ووقت انتخاب هذه الرسالة من التوفيق بمكان؛ إذ نحن نستقبل بعد أيام شهر رمضان، وهذا الدعاء الذي تتشنف به الأسماع، وتترقق به الطباع، وهو حديثٌ شريفٌ علَّمه النبي ﷺ لسِبطه ﷺ، اسأل الله ﷻ أن ينفعني وإياكم بهذا الحديث الشريف.

قال المصنف العلامة/ محمد بن صالح العثيمين –رحمه الله تعالى– في رسالته (**شرح دعاء قنوت الوتر**):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث ورد في مسند الإمام أحمد عن حسن بن علي رضي الله عنهما قالا: علمني رسول الله ﷺ كلماتٍ أقولهن في قنوت الوتر: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت؛ فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت**».

هذا الحديث؛ حديثٌ مخرجٌ في مُسند الإمام أحمد، واتفق أصحاب السنن؛ وهم أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه على إخراجه في سننهم، وقد تلقاه أهل العلم بالقبول، وقبل الشروع في هذا الحديث، يُستفاد من هذا الحديث عناية النبي ﷺ بتلقين العقيدة للصبيان، وهذا يدل عليه هذا الحديث، وكذلك حديث عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ من زوجه أم سلمة، حين قال له النبي ﷺ: «**يا غلام سم الله**»؛ في ذلك تهذيب النفس على

الاعتقاد، «**وكل بيمينك، وكل مما يليك**»؛ فهذه جملة أحاديث أعتنى العلماء بجمعها مما يتعلق بعناية النبي ﷺ بتلقين الصبيان الاعتقاد ومباحث الإيمان، ثم يشرع الشيخ -رحمه الله تعالى- بالتعليق على مفردات هذا الحديث الشريف.

قال -رحمه الله تعالى-: الشرح: «**اللهم اهدنا فيمن هديت**»؛ أي دُلنا على الحق ووفقنا للعمل به؛ وذلك لأن الهداية التامَّة النافعة هي التي يجمع الله فيها للعبد بين العلم والعمل؛ لأن الهداية بدون عملٍ لا تنفع، بل هي ضرر؛ لأن الإنسان إذا لم يعمل بما علم صار علمه وبالًا عليه.

مثال الهداية العلمية بدون العمل: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧]، أي بيَّنا لهم الطريق وأبلغناهم العلم، ولكنهم -والعياذ بالله- استحبوا العمى على الهدى.

ومن ذلك أيضًا من الهداية التي هي العلم وبيان الحق؛ قول الله -تبارك وتعالى- للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]؛ أي تدل وتبين وتعلم الناس الصراط المستقيم.

وأما الهداية التي بمعنى التوفيق؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، هذه هداية التوفيق للعمل، والرسول ﷺ لا يستطيع أن يوفق أحدًا للعمل الصالح أبدًا، ولو كان يستطيع ذلك لاستطاع أن يَهْدِي عمه أبا طالب، وقد حاول معه حتى قال له عند وفاته -أي قال لعمِّه عند وفاة عمِّه-: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أُحاج لك بها عند الله**»، ولكن قد سبقت من الله ﷻ الكلمة بأنه من أهل النار

-والعياذ بالله-، فلم يقل: «لا إله إلا الله»، وكان آخر ما قال: «هو على ملة عبد المطلب»، ولكن الله ﷻ أذن لرسوله ﷺ أن يشفع له، لا لأنه عمه، لكن لأنه قام بالدفاع عن النبي ﷺ وعن الإسلام، فشفع النبي ﷺ في عمه فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه؛ وإنه لأهون أهل النار عذابًا، قال النبي ﷺ: «**ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**». فإذا قلنا في دعاء القنوت: «**اللهم اهدنا فيمن هديت**»؛ فإننا نسأل الهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل، كما أن قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، يشمل الهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل؛ فينبغي للقارئ أن يستحضر أنه يسأل الهدايتين: هداية العلم وهداية العمل.

الهداية شأنها عظيم، ويكفي من عِظم شأنها أن الواحد منا يسأل الرب -جلَّ جلاله- سبعة عشرة موضعًا أن يهديه الصراط المستقيم؛ هذا أقل أحوال العبد أنه يسأل الرب -جلَّ جلاله- سبعةَ عشرة مرة أن يهديه الصراط المستقيم، والهداية كما بيَّن الله -رحمه الله تعالى- أن تسأل الله ﷻ:

١. أن يعرفك الحق.

٢. أن يُعينك على العمل بالحق.

لذلك جاء في الدعاء المأثور عن بعض السلف: "اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه"، فليس الشأن أن تعرف الحق، لكن الشأن كل الشأن أن تُوفَّق للعمل بالحق، لذلك معرفة العبد بالحق هذا مما امتنَّ الرب -جلَّ جلاله- به على جميع العباد، وهو حجته البالغة، ونعمته السابغة؛ كما قال الرب -جلَّ جلاله-: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]؛ أي معرفة

طريقي الخير والشر، أما أن توفَّق للهداية فهذا بحسب ما يطلع الرب -جلَّ جلاله- على قلبك، فإن وجد في قلبك الخير وفَّقك إليه، فحُجة الرب -جلَّ جلاله- قد قامت على جميع العباد، فليس للعبد أن يقول: إن الله ﷻ ما هداني، بل الرب -جلَّ جلاله- قد هدى جميع العباد.

والأمر الثاني مما ذكره -رحمه الله تعالى- في هذا الحديث ما يتعلق بشفاعة النبي ﷺ لعمه، وشفاعة النبي ﷺ لعمه إحدى الشفاعات التي خُصَّ بها النبي ﷺ، وأعظم ذلك الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود؛ وهو قبول الرب -جلَّ جلاله- لشفاعة النبي ﷺ في الفصل بين العباد، والقضاء بينهم.

والشفاعة الثانية: فتح باب الجنة؛ فإن الرب -جلَّ جلاله- قد كتب أنه لا تُفتَّح أبواب الجنة إلَّا بشفاعة النبي ﷺ كما في الصحيحين، وهذه الشفاعة الثالثة مما أُختص به النبي ﷺ.

وتأتي الشفاعة الرابعة يشارك النبي ﷺ فيها الملائكة المقرَّبون، والأنبياء المرسلون، وعباد الله الصالحون، والشهداء المتقبلون؛ كإخراج من وجب عليه دخول لنار أن يخرجه الرب -جلَّ جلاله- إما قبل العذاب، وإما بعد أن يُعذَّب.

وشفاعة خامسة: في رفع درجات أهل الجنة فوق منازلهم التي أنزلهم الرب -جلَّ جلاله- إياها.

والشفاعة الرابعة بعض أهل العلم يقسمها إلى قسمين: إلى من استوجب دخول النار أن لا يدخلها جعلها واحدة، ومن دخلها أن يُخرج منها بعد أن يُعذَّب فيكون المجموع على هذا التفريق والتفريع يرجع إلى ست شفاعات، هذا ما يتعلق بما جاءت الإشارة إليه.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله: «**فيمن هديت**»؛ هذا من باب التوسل بإنعام الله تعالى على من هداه، أن ينعم علينا نحن أيضًا بالهداية.

ويعني: أننا نسألك الهداية فإن ذلك من مقتضى رحمتك وحكمتك ومن سابق فضلك؛ فإنك قد هديت أناسًا آخرين.

وهذا من مواطن التوسل المشروع، وهو أن تتوسل إلى الله ﷻ بنعمة الرب -جلَّ جلاله- الذي أسداها إليك وامتن بها عليك، ومن ذلك ما يتعلق بالإيمان، ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]؛ فهذا من التوسل المشروع، أن تذكر نعمة الله ﷻ عليك كأنك تقول: يا من أنعمت عليَّ بهذه النعمة السابغة؛ امنن عليَّ بآلائك ونعمائك، ومن ذلك الهداية.

والنوع الثاني أن تتوسل بعملك الصالح الذي أكرمك الرب -جلَّ جلاله- وهداك إليه؛ لاسيما خبيئة الأعمال التي لم يطلع عليها أحدٌ من الناس.

والنوع الثالث: أن تتوسل إلى الله ﷻ بدعاء الرجل الصالح الذي تحضر بين يديه فيدعو لك بدعاء صالح رجاء أن يستجيب الرب -جلَّ جلاله- دعائه.

قال -رحمه الله تعالى-: «**وعافنا فيمن عافيت**»؛ عافنا من أمراض القلوب وأمراض الأبدان، وينبغي لك يا أخي أن تستحضر وأنت تدعو، أن الله يعافيك من أمراض البدن، وأمراض القلب؛ لأن أمراض القلب أعظم من أمراض البدن، ولذلك نقول في دعاء القنوت: «**اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا**».

أمراض الأبدان معروفة؛ لكن أمراض القلوب تعود إلى شيئين:

الأول: أمراض الشهوات التي منشؤها الهوى.

الثاني: أمراض الشبهات التي منشؤها الجهل.

فالأول: أمراض الشهوات التي منشؤها الهوى، أن يعرف الإنسان الحق، لكن لا يريده؛ لأن له هوًى مخالفًا لما جاء به النبي ﷺ.

والثاني: أمراض الشبهات التي منشؤها الجهل؛ لأن الجاهل يفعل الباطل يظنه حقًّا وهذا مرض خطير جدًّا.

فأنت تسأل الله المعافاة والعافية من أمراض الأبدان، ومن أمراض القلوب، التي هي أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات.

وكما بيَّن -رحمه الله تعالى-، أمراضُ الأبدانِ معروفةٌ، ومن دعاء النبي ﷺ الذي كان يستعيذ به ربَّه -تبارك وتعالى- أنه كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من البرص، والجنون، والجذام، ومن سيئ الأسقام**»، وهو مُخرّجٌ في السنن، فالنبي ﷺ كان يستعيذ بالله من أمراض الأبدان، وهكذا ينبغي للإنسان، أن يستعيذ الله ﷻ من أمراض الأبدان،

لأن مرض البدن يحول بينك وبين الجماعة، يحول بينك وبين صالح الأعمال، يحول بينك وبين أن تستحضر نعمة الله ﷻ عليك، لذلك جاء في الدعاء المأثور: «**ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبدًا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا**»، كل ذلك مما ينبغي للإنسان أن يسأله الرب -جلَّ جلاله-، ثم بعد ذلك إذا ابتلي الإنسان بمرض الأبدان؛ أول ما يفزع إليه ينبغي أن يُفزع إلى الرقية الشرعية؛ بأن يقرأ على نفسه، وأعظم ما قُرئ على النفس أن يقرأ الإنسان على نفسه بفاتحة الكتاب؛ لقول النبي ﷺ: «**وما يدريك أنها رُقية**»، فيقرأ على نفسه بفاتحة الكتاب، ومواطن الآيات التي فيها الخير وكل القرآن خير؛ كآية الكرسي، وكالإخلاص والمعوذتين.

وأما أمراض القلوب فإنها كما بيَّن -رحمه الله تعالى- ترجع إلى مرضين: مرض الشهوات، ومرض الشبهات، ومرض الشبهات جاءت الإشارة إليه في أول القرآن الكريم في قول الله ﷻ عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، وأما مرض الشهوات؛ فجاء ذكره في سورة الأحزاب في قول الرب -جلَّ جلاله-: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

مرض الشبهات دواءه اليقين، ومرض الشهوات دواءه الصبر، وكما قال أهل العلم بالصبر واليقين: تُنال الإمامة بالدين، فتدفع باليقين مرض الشبهات الذي هو مرض تلوث الاعتقادات، وتدفع بالصبر مرض الشهوات الذي هو تلوثٌ باللذات المحرمات، كما قال الله ﷻ في سورة السجدة وهو يُبين أثر ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فهذان من أعظم ما يحتاج إليهما العبد، أن يسأل

الله ﷻ أن يُفرغ عليها اليقين الذي يدفع به الشبهات وأن يُفرغ عليه الصبر الذي يدفع به الشهوات.

قال -رحمه الله تعالى-: وقولنا: «**وتولنا فيمن توليت**»؛ أي كُنْ وليًّا لنا.

والولاية نوعان: عامَّةٌ وخاصَّة.

فالولاية الخاصَّة: للمؤمنين خاصَّة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فتسأل الله تعالى الولاية الخاصة التي تقتضي العناية بمن تولاه الله ﷻ والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

أما الولاية العامة، فهي تشمل كل أحد، فالله ولي كل أحد؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وهذا عام لكل أحد، ثم قال: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

لكن عندما نقول: «**اللهم اجعلنا من أوليائك**»، أو «**اللهم تولنا**»، فإننا نريد بها الولاية الخاصة، وهي تقتضي العناية والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

والولاية الخاصة هي التي جاءت الإشارة إليها: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه**»، هذه الولاية الخاصة أن يصون الرب -جلَّ جلاله- سمع العبد فلا يسمع ما يكرهه الرب -جلَّ جلاله-، وأن يصون بصره فلا

تقع عينه على ما يغضب الله -جلَّ جلاله-، وأن يصون يده وأن يصون رجله وأن يستجيب دعاءه، فهذه من آثار الولاية الخاصة؛ اسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن أسبل الرب -جلَّ جلاله- عليهم جلباب هذه الولاية.

قال -رحمه الله تعالى-: وقولنا: «**وبارك لنا فيما أعطيت**»؛ البركة هي الخير الكثير الثابت، ويُعيد العلماء ذلك إلى اشتقاق هذه الكلمة، فإنها من البِرْكة، بكسر الباء وهي مجمع الماء، فهي شيء واسع ماؤه كثير ثابت. فالبَرَكَة هي الخيرات الكثيرة الثابتة. والمعنى أي: أنزل لي البركة فيما أعطيتني.

والبركة صفةٌ من صفات الله ﷻ، والرب -جلَّ جلاله- هو المبارِك، وهي صفةٌ ذاتية وفعلية، صفةٌ ذاتية لا تنفك عن الذات المقدسة، كما لا تنفك عن الذات المقدسة صفة العلو، وصفة اليدين المبسوطتين بالخير. وصفةٌ فعلية يجعل الرب -جلَّ جلاله- البركة فيمن شاء من عباده؛ كما جعل عيسى عليه السلام مباركًا حيثُما كان، وكما يبارك الرب -جلَّ جلاله- ما شاء من زمان؛ كما يُبارك شهر رمضان، أو ما شاء من مكان؛ كما يبارك بيته الحرام، أو ما شاء من إنسان؛ كما يبارك أولياءه، فلذلك العبد أحوج ما يكون إلى هذه البركة، فإذا أودع الرب -جلَّ جلاله- البركة في عبده جعله مباركًا في علمه، مباركًا في عمله، مباركًا في أهله، مباركًا في عياله، مباركًا في ماله، فينبغي لنا أن نستشعر هذا المعنى وأن نسأل الله ﷻ البركة.

قال –رحمه الله تعالى–: «**فيما أعطيت**»؛ أي أعطيت من المال والولد والعلم وغير ذلك مما أعطى الله ﷻ، فتسأل الله البركة فيه؛ لأن الله إذا لم يبارك لك فيما أعطاك حُرمت خيرًا كثيرًا.

ما أكثر الناس الذين عندهم مال كثير لكنهم في عِداد الفقراء؛ لأنهم لا ينتفعون بمالهم، يجمعونه ولا ينتفعون به. وهذا من نزع البركة.

وكثيرٌ من الناس عنده أولاد، لكن أولاده لا ينفعونه لما فيهم من عقوق، وهؤلاء لم يُبَارَكْ لهم في أولادهم.

تجد بعض الناس أعطاه الله علمًا كثيرًا لكنه بمنزلة الأمِّي، لا يظهر أثر العلم عليه في عبادته، ولا في أخلاقه، ولا في سلوكه، ولا في معاملته مع الناس، بل قد يُكْسِبه العلم استكبارًا على عباد الله، وعلوًّا عليهم، واحتقارًا لهم، وما علم هذا أن الذي منَّ عليه بالعلم هو الله، تجده لم ينتفع الناس بعلمه، ولا بتدريس، ولا بتوجيه، ولا بتأليفه، بل هو منحصر على نفسه، وهذا بلا شك حرمان عظيم، مع أن العلم من أبرك ما يعطيه الله للعبد؛ لأن العلم إذا علَّمْته غيرك ونشرته بين الناس؛ أُجِرتَ على ذلك من عدة وجوه:

الأول: أن في نشرك للعلم نشرًا لدين الله ﷻ؛ فتكون من المجاهدين في سبيل الله؛ لأنك تفتح القلوب بالعلم، كما يفتح المجاهد البلاد بالسلاح والإيمان.

الثاني: من بركة نشر العلم وتعليمه أن فيه حفظًا لشريعة الله ﷻ، وحماية لها؛ لأنه لولا العلم لم تحفظ الشريعة.

الثالث: من بركة نشر العلم، أنك تُحْسِن إلى هذا الذي علمته؛ لأنك تبصره في دين الله ﷻ فإذا عبد الله على بصيرة كان لك مثل أجره؛ لأنك أنت الذي دللته على الخير، والدال على الخير كفاعله.

الرابع: أنَّ في نشر العلم وتعلميه زيادة له، فعلم العالم يزيد إذا علّم الناس؛ لأنه استذكار لما حفظ وانفتاح لما لم يحفظ، كما قال القائل: "يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفًّا شددتا"؛ أي: إذا أمسكته ولم تعلِّمه نقص.

وهذه بعض آثار البركة، بعض آثار البركة أن ترى أثر ذلك في علمك، فينشر الرب –جلَّ جلاله– علمك في الآفاق، وكذلك ترى البركة في عملك فتجد بعض الناس مع كونه قد عُمِّر إلا أنه ولله الحمد والمنة لازال يقوى على الصيام، وعلى القيام، وعلى صلة الأرحام. وهناك البركة في المال؛ تجد هذا الإنسان قد بُسط له في النفقة، وكلما ازداد نفقةً كلما ازداد ماله، مصداقًا لقول النبي ﷺ: «**ما نقص مالٌ من صدقة**»، وهناك بركةُ العيال، وبركة الزوجة، وبركة الخادم، وبركة البيت؛ كلها مما يلحقها البركة إذا امتنَّ الرب –جلَّ جلاله– على العبد وبارك له فيما أعطاه.

قال –رحمه الله تعالى–: «**وقنا شر ما قضيت**»؛ الله ﷻ يقضي بالخير ويقضي بالشر. أما قضاؤه بالخير فهو خيرٌ محض في القضاء والمقضي.

مثال القضاء بالخير: القضاء للناس بالرزق الواسع، والأمن والطمأنينة، والهداية والنصر.. إلخ. هذا خير في القضاء والمقضي.

القضاء بالشر: خيرٌ في القضاء، شرٌ في المقضي.

مثال ذلك: القحط (امتناع المطر) هذا شر، لكن قضاء الله به خير، كيف يكون القضاء بالقحط خيرًا؟ لو قال قائل: إن الله يقدِّر علينا القحط، والجدب، فتموت المواشي، وتفسد الزروع، فما وجه الخير؟

نقول: استمع إلى قول الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، إذًا لهذا القضاء غاية حميدة؛ وهي الرجوع إلى الله ﷻ من معصيته إلى طاعته، فصار المقضي شرًّا والقضاء خيرًا.

وعلى هذا فـ «ما» هنا اسم موصول.

والمعنى: قِنَا شرَّ الذي قضيت، فإن الله تعالى يقضي بالشرِّ لحكمةٍ بالغةٍ حميدة، وليست (ما) هنا مصدرية أي شر قضائك لأنها هنا اسم موصول بمعنى الذي، لأن قضاء الله ليس فيه شر، ولهذا قال النبي ﷺ فيما أثنى به على ربه: «**والخير بيديك والشر ليس إليك**»؛ لهذا لا ينسب الشر إلى الله ﷻ.

وهذا يدلنا على اسم الجلالة (الحكيم)، وعلى صفة الحكمة، وعلى أن أفعال الله ﷻ مكتنفةٌ بالحكم البالغة، فما كان من وجوه الخير قد يكون ظاهرُها الخير للعبد، ويسأله العبد ربه أن يُعطيه إياها، لكن الرب -جلَّ جلاله- يصرف العبد عنها لعلمه أنها وإن كان ظاهره الخير إلا أنها لا تصلح لهذا العبد، لذلك شُرع لنا صلاة الاستخارة، أن ندعو الله ﷻ أن يختار لنا ما يُصلحنا في أمور ديننا أو دنيانا، وقد يكون ظاهر الأمر من الشر الذي تنفر منه النفوس؛ لكن باطنه قد حشاه الرب -جلَّ جلاله- بالخير والمنفعة، ولنقف على ثلاث قصص ذكرها الرب -جلَّ جلاله- في سورة الكهف، فيما جرى بين موسى

عليه السلام والخضر، ظاهر هذه القصص الشر المحض الذي ظهر لموسى، لكن باطنها هو الخير المحض، لولا خرق السفينة لاغتصبها الملك الجبار، فكان في هذا الخرق اليسير عودٌ لأصحاب هذه السفينة بالمنفعة، ولولا قتل هذا الغلام لكان مآله إلى الكفر وسيرهق والديه طغيانًا وكفرًا، فكان في قتله إلحاق له مع صالح المؤمنين في كفالة إبراهيم عليه السلام، ولولا بناء الجدار لسلب هذا الكنز أهل هذه القرية الظالم أهلُها الذين ابتلوا بالشُّح، وعدم كرامة النفس، فكان في إقامة هذا الجدار الحفظ لهذين اليتيمين، إذًا هكذا ينبغي لك إذا ابتُليت بما ظاهره الشر المحض أن تعتقد أن في باطن هذا الشر ما هو خيرٌ لك وحكمة، وهذا مما ينبغي أن يُطالعه العبد حتى يزداد إيمانه بقضاء الله وقدره.

قال -رحمه الله تعالى-: «**إنك تقضي ولا يُقضى عليك**»، الله عز وجل يقضي قضاء شرعيًّا وقضاء كونيًّا، فالله تعالى يقضي على كل شيء وبكل شيء؛ لأن له الحكم التام الشامل.

أما القضاء الشرعي هي الأحكام من الأوامر والنواهي، وأما القضاء الكوني هذا الذي لا يُرد ولا يُبدَّل؛ سواءٌ كان متعلقًا بالعالم العلوي أو السفلي، أو كان متعلقًا بالإنسان.

الإنسان ينبغي أن يُقابل قضاء الله عز وجل الكوني بالصبر عليه، والانقياد له طوعًا وكرهًا، وأن يُقابل القضاء الشرعي بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

قال -رحمه الله تعالى-: «**ولا يقضى عليك**»؛ أي لا يقضي عليه أحد، فالعباد لا يحكمون على الله، والله يحكم عليهم، والعباد يُسألون عما عملوا، وهو لا يُسأل: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

لذلك كان من أدب مقابلة العبد بقضاء الله وقدره؛ أن يُظهر الصبر عند الصدمة الأولى، كما مر النبي ﷺ كما في حديث أنس على امرأةٍ وقد أطرحت على قبر وليدها، فقال لها من وراء ظهرها: «**اتقِّ الله يا أمة الله واصبري**»، فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمثل مصيبتي، قال أنس: ولم تعرف النبي ﷺ، وكان من حكمة النبي ﷺ أنه تركها وذهب إلى بيته، وهذا مما يُستفاد من هدي النبي ﷺ إذا وجدتَ الرجل في شدة الغضب، أو شدة الحزن، أو شدة الفرح ولم يستجب لنصحك فدعه؛ لأنه قد زاغ عقله ولم يملك شعوره، فعليك أن تنبهه فإذا لم يستجب لك دعه إلى أن يرجع ويفيء إلى رشده، فلما ذهب النبي ﷺ قيل لها: هذا رسول الله ﷺ!، فيقول أنس: فأخذها مثل الموت، فأتت بيت النبي ﷺ ولم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله، والله لم أعرفك، فلم يزد عليها النبي ﷺ أن قال لها: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»؛ فهكذا ينبغي لنا أن نُقابل هذا القضاء الذي وقع علينا، أن نقابله بالصبر، وهذا يُرشدنا إلى هدي النبي ﷺ، ليس معنى ذلك أن تُبادر بسؤال الله ﷻ كما يفعل بعض من صُرف عن السُّنة، ويسأل الله ﷻ البلاء لما يجد من عظيم الجزاء، لذلك النبي ﷺ قال لأصحابه: «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية**»، لا يقل أحدنا: أتمنى لو مرضت حتى أصبر، وأُبتلى، وأجازى بالخير، لكنك سل الله ﷻ العافية؛ لأنك لا تدري لو أُبتليت هل تصبر أو تتسخط على قضاء الله وقدره.

قال -رحمه الله تعالى-: «**إنه لا يذل من واليت، ولا يعزّ من عاديت**»، هذا كالتعليل لقولنا فيما سبق: «**وتولنا فيمن توليت**»، فإذا تولى الله الإنسان فإنه لا يذل، وإذا عادى الله الإنسان فإنه لا يعز.

ومقتضى ذلك أننا نطلب العز من الله سبحانه، ونتقي من الذل بالله ﷻ، فلا يمكن أن يذل أحد والله تعالى وليه، فالمهم هو تحقيق هذه الولاية. وبماذا تكون هذه الولاية؟

هذه الولاية تكون بوصفين بيَّنهما الله ﷻ في كتابه، فقال ﷻ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، وصفانِ أحدهما في القلب، والثاني في الجوارح. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ في القلب، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ هذه في الجوارح، فإذا صلح القلب والجوارح؛ نال الإنسان الولاية بهذين الوصفين، وليست الولاية فيمن يدعيها من أولئك القوم الذين يسلكون طرق الرهبان وأهل البدع الذين يبتدعون في شرع الله ما ليس منه، ويقولون نحن الأولياء. فولاية الله ﷻ التي بها العز هي مجموعة في هذين الوصفين: الإيمان والتقوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– أخذًا من هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]: "من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا"، وصدق –رحمه الله–؛ لأن هذا الذي دلَّ عليه القرآن.

والمراد بهذه العزَّة التي يُسْبِل الرب –جلَّ جلاله– ثوبها على أولياءه هي عزَّة الدين، لأنه قد يكون من أفخر الناس، وأضعف الناس، وأبأس الناس؛ لكن المراد هي عزَّة الدين التي يُعز الرب –جلَّ جلاله– بها عباده المؤمنين.

وكذلك الذلَّة المراد بها ذلة الدين، فإن أعداء الله ﷻ وإن بُسط لهم في الرزق، وأنسئ لهم في الأثر، ومُتِّعوا لكن آثار الذلة لا تكاد تفارقهم، كما قال الحافظ البصري –رحمه الله تعالى–، فهذا هو المراد؛ المراد أن الله ﷻ يعز أولياءه كما قال –جلَّ جلاله–: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، المراد هي عزة الدين، وأما الذلة فالمراد بها ذلة المعصية، فعادت العزة إلى عزة الطاعة، والذلة إلى ذلة التفريط والإضاعة.

قال -رحمه الله تعالى-: «**ولا يعزُّ من عاديت**»؛ يعني أن من كان عدوًّا لله فإنه لا يعز، بل حاله الذل والخسران والفشل، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، فكل الكافرين في ذل وهم أذلة. ولهذا لو كان عند المسلمين عز الإسلام وعز الدين وعز الولاية؛ لم يكن هؤلاء الكفار على هذا الوضع الذي نحن فيه الآن، حتى إننا ننظر إليهم من طرف خفي، ننظر إليهم من طريق الذل لنا، والعز لهم؛ لأن أكثر المسلمين اليوم مع الأسف لم يعتزوا بدينهم، ولم يأخذوا بتعاليم الدين، وركنوا إلى مادة الدنيا، وزخرفها؛ ولهذا أصيبوا بالذل، فصار الكفار في نفوسهم أعز منهم. لكننا نؤمن أن الكفار أعداء لله وأن الله كتب الذل على كل عدو له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]. وهذا خبر مؤكد، ثم قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، فمن عادى الله ﷻ فهو ذليل لا يمكن أن يكون عزيزًا إلا في نظر من لا يرى العزة إلا في مثل ما كان عليه هذا الكافر، وأما من نظر أن العزة لا تكون إلا بولاية الله ﷻ والاستقامة على دينه فإنه لا يرى هؤلاء إلاَّ أَذَلَّ خلق الله.

وهذا الموطن له تعلقٌ بالولاء والبراء، وأنك ينبغي أن تستظهر الإخوة الإسلامية فتوالي من والى الله ﷻ، وأن تُعادي من عادى الله ﷻ، وهذه من أعظم عُرى الإسلام أن تحب في الله، وأن تُبغض في الله، وأن تُعطي في الله، وأن تمنع في الله، وأن توالي في الله، وأن تعادي في الله، أن يكون أمرك قائمًا على الولاء والبراء، ومن ذلك أن لا توالي من عادى الله ﷻ،

وعادى رسوله ﷺ، وعادى أولياءه، بل ينبغي لك أن تُظهر له العداوة، وهذا فيما يتعلق بالأمور الدينية، وأما الأمور الدنيوية فلا حرج في التعاون فيما يتعلق بحدود الأمور الدنيوية، فالنبي ﷺ قد ضرب لنا أعظم الأمثلة وهو يعيش في المدينة وبين ظهراني اليهود، كان يُعاملهم بالبيع والشراء والرهن، وكان يُجيب دعوتهم، ويزور مريضهم، فالحديث فيما يتعلق بالولاء والبراء إنما هو حديثُ الأمور الدينية، وأما الأمور الدنيوية فلا حرج في ذلك، والسعيد من أوطن وأبطن النية الطيبة الصالحة في أنه يُريد من وراء ذلك أن يُحببهم في الدين، وأن يهديهم إلى الصراط المستقيم كما زار النبي ﷺ ذلك الغلام وعاده في مرضه، وقبل أن يقوم قال له: «**أسلم يا غلام**»، فالتفت الغلام إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فخرج والنبي ﷺ يتهلل وجهه فرحًا وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه الله بي من النار**»، فينبغي لنا أن نراعي ذلك لاسيما مع ما ابتُلينا به هذا الزمان مع السائقين والخدم أن نُحسن إليهم ومقصودنا من وراء ذلك أن نحببهم في الدين، وأن نعرفهم على محاسن هذه الشريعة.

قال -رحمه الله تعالى-: «**تباركت ربنا وتعاليت**»، هذا ثناءٌ على الله ﷻ بأمرين: أحدهما التبارك، والتاء للمبالغة؛ لأن الله ﷻ هو أهل البركة «**تباركت**»؛ أي كثرت خيراتك وعمت ووسعت الخلق؛ لأن البركة كما قلنا فيما سبق هي الخير الكثير الدائم.

لذلك هذه البركة ينبغي أن تجعلها نصب عينيك، كثيرٌ من الناس يشكو الله الفاقة، ويشكو الناسَ الفقرَ، وهذا لو نظرنا إليه لوجدنا البركة قد نُزعت من ماله، فجزءٌ من ماله يذهب -عافانا الله وإياكم- في الأمور التي لا غنى له عنها من علاجٍ، فلو سأل الله البركة لبارك الله ﷻ في جسده فاستغنى عن هذا العلاج، أو يذهب في دراسة أبناءه وتقوية

ضعفهم، ولو سأل الله البركة جعل في أبناءه النشاط والهمة العالية، فعادت أمواله إليه وانتفع من وراءها، لذلك كثيرٌ من الناس لا يجتهد في أسباب تحصيل البركة، وإنما –والعياذ بالله– يجتهد في أسباب تحصيل السحر، فيذهب ويبحث عن الرشوة، وعن المال الحرام، وعن أكل الربا، وعن أكل الأموال المحرَّمة، ولو سأل الله ﷻ البركة لوجدها من قريب.

قال –رحمه الله تعالى–: وقوله: «**ربنا**»؛ أي يا ربنا، فهو منادى حذفت منه ياء النداء.

والرب أحد أوصاف الرب –جلَّ جلاله– وهو الذي ربَّى عباده بثلاثة أمور: رباهم بالإيجاد، وربَّاهم بالإمداد، وربَّاهم بالإعداد؛ كما جمعها الرب –جلَّ جلاله– في آية النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨]؛ هذه ربوبية الإيجاد حيث أوجدنا من العدم، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:٧٨]؛ هذه ربوبية الإمداد بالنعم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]؛ تهيئة العبد للعبودية التي ترتقي بالعبد لأن يكون في مصاف خير الأمم، فهي ثلاثة أنواع، اسأل الله ﷻ أن يعيننا على شكر النوعين الأوليين، وأن يعيننا على القيام بالنوع الثالث.

قال –رحمه الله تعالى–: وقوله: «**وتعاليت**»؛ من العلو الذاتي والوصفي. فالله ﷻ عليٌّ بذاته وعليٌّ بصفاته. عليٌّ بذاته فوق جميع الخلق، وعلوه ﷻ وصف ذاتيٌّ أزليٌّ أبدي، أما استواؤه على العرش فإنه وصف فِعْلِيٌّ يتعلق بمشيئته ﷻ، والعرش: هو أعلى المخلوقات، وعليه استوى الله ﷻ؛ يعني علا عليه علوًّا يليق بجلاله وعظمته، لا نُكَيِّفُه ولا نمثِّله وهذا العلو أجمع عليه السلف الصالح لدلالة القرآن والسنة والعقل والفطرة على ذلك.

وأما العلو الوصفي فمعناه أن الله له من صفات الكمال أعلاها وأتمها، وأنه لا يمكن أن يكون في صفاته نقص بوجه من الوجوه.

وفي دعاء القنوت جملة يكثر السؤال عنها مما يدعو به أئمتنا في قنوتهم، يقولون: «**هب المسيئين منا للمحسنين**»؛ فما معناها؟

أقرب الأقوال فيها أنها من باب الشفاعة، يعني أن هذا الجمع الكبير فيهم المسيء، وفيهم المحسن، فاجعل المسيء هدية للمحسن بشفاعته له فكأنه قيل، وشفِّع المحسنين منا في المسيئين.

تم بحمد الله وتوفيقه.. وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

علو الله ﷻ أجمل المؤلف –رحمه الله تعالى– ذكره، وعند التأصيل نجد أن العلو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١– إلى علو الذات؛ وهو علو الرب –جلَّ جلاله– على جميع المخلوقات.

٢– وعلو القدر؛ وهو إليه الإشارة في قول الله –جلَّ جلاله–: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل:٦٠]، حتى إن مشركي العرب كانوا إذا أدركتهم الدهماء، وأحاطت بهم الشدة واللأواء فزعوا إلى رب الأرض والسماء.

٣– وعلو القهر؛ الذي إليه الإشارة في قول الرب –جلَّ وجلاله–: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨].

وأما العرش فإنه كما ذكر؛ ذكر أحد أوصافه وأنه أعلى المخلوقات، والعرش ذكره في القرآن الكريم بثلاثة أوصاف لا رابع لها؛ وصف بأنه عرشٌ عظيم، ووصف بأنه عرشٌ مجيد، ووصف بأنه عرشٌ كريم، وكلها أوصاف للرب -جل جلاله-، فوصف الرب -جلَّ جلاله- عرشه بما هو مستفاد من وصفه -تبارك وتعالى-.

والأمر الثالث: ما ذكره -رحمه الله تعالى- بالعلو، ذكر دلائل العلو، وذكر -رحمه الله تعالى- أربع دلائل، وفات المؤلف -رحمه الله تعالى- في هذا الموطن مع أنه نبه على ذلك في كثيرٍ من كتبه إلى الدليل الخامس، فدلائل العلو خمسٌ دلائل: دلالة القرآن الكريم، ودلالة السُّنة المطهرة، ودلالة الإجماع التي ما ذُكرت هنا، ودلالة العقل، ودلالة الفطرة، وهذه هي الرسالة كما تأملنا في بعض دلائلها رسالةٌ قيمة، صغيرةُ الحجم لكنها كثيرة الفوائد والعلم، اسأل الله ﷻ أن ينفعني وإياكم بما استمعنا إليه.

هناك أسئلة تتعلق بهذه الرسالة وهي سؤالان: لهما علاقةٌ بهذا الدعاء، نكتفي بقراءة هذين السؤالين وهما في غنىً عن الشرح والتعليق.

سُئل فضيلة الشيخ -رحمه الله تعالى-: هل تجوز الزيادة على هذا الدعاء الذي علَّمه رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما؛ فأجاب فضيلته -رحمه الله-.

لا بأس أن يزيد الإنسان على هذا الدعاء في قنوت الوتر؛ وإن كان وحده فليدعُ بما شاء، ولكن الأفضل أن يختار الإنسان جوامع الدعاء؛ لأن النبي ﷺ كان يدعو بجوامع الدعاء ويَدَعُ ما دون ذلك، وينبغي للإمام أن لا يطيل على الناس وأن لا يشقَّ عليهم.

مع التنبيه على أمر: وهو أن ننبه من باب النصح للناس أن هذا ليس من الدعاء المشروع، الدعاء بابه واسع، ادع بما شئت شريطة أن لا تدعوا بإثمٍ أو قطيعة رحم، لكن ينبغي – وهذا من واجب الأئمة وواجب الدعاة وواجب الناصحين– أن يبينوا للناس أن هذا هو دعاءٌ مشروع دعا به النبي ﷺ، هذا دعاءٌ أُثر عن أحد الصحابة، هذا دعاء جاء عن بعض السلف، هذا دعاءٌ استحسنه بعض أهل العلم والفضل، ينبغي أن يُبين للناس حتى يُعلق الناس بأدعية النبي ﷺ، نعم.

أحسن الله إليكم.. قال: وسئل فضيلة الشيخ –رحمه الله– عن استعجال الإجابة، قال: قد دعوت الله ﷻ فلم يستجب لي، فأجاب فضيلته –رحمه الله– بقوله: الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأسأل الله تعالى لي ولإخواني المسلمين التوفيق للصواب عقيدةً، وقولًا، وعملًا، يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، ويقول السائل: إنه دعا الله ﷻ ولم يستجب الله له، فيستشكل هذا الواقع مع هذه الآية الكريمة التي وعد الله تعالى فيها من دعاه بأن يستجيب له، والله ﷻ لا يخلف الميعاد.

والجواب على ذلك أن للإجابة شروطًا لابد أن تتحقق وهي:

الشرط الأول: الإخلاص لله ﷻ بأن يُخلص الإنسان في دعائه، فيتجه إلى الله ﷻ بقلب حاضر صادق في اللجوء إليه، عالم بأنه ﷻ قادرٌ على إجابة الدعوة، ومؤمل الإجابة من الله ﷻ.

الشرط الثاني: أن يشعر الإنسان حال دعائه بأنه في أمسِّ الحاجة بل في أمس الضرورة إلى الله ﷻ، وأن الله تعالى وحده هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وأما أن يدعو الله ﷻ وهو يشعر بأنه مستغنٍ عن الله ﷻ، وليس في ضرورة إليه وإنما يسأل هكذا عادة فقط أو للتجربة؛ فإن هذا ليس بحري بالإجابة.

الشرط الثالث: أن يكون متجنبًا لأكل الحرام؛ فإن أكل الحرام حائل بين الإنسان والإجابة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**»، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، ثم ذكر النبي ﷺ: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب: ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام**»، قال النبي ﷺ: «**فأنى يستجاب له؟**»، فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لهذا الرجل الذي قام بالأسباب الظاهرة التي بها تستجلب الإجابة وهي:

أولًا: رفع اليدين إلى السماء أي إلى الله ﷻ لأنه تعالى في السماء فوق العرش، ومد اليد إلى الله ﷻ من أسباب الإجابة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند: «**إن الله حييٌ كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا**».

ثانيًا: هذا الرجل دعا الله تعالى باسم الرب: "يا رب، يا رب"، والتوسل إلى الله تعالى بهذا الاسم من أسباب الإجابة، لأن الرب هو الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فبيده مقاليد السماوات والأرض، ولهذا تجد أكثر الدعاء الوارد في القرآن الكريم بهذا الاسم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا

سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٥]؛ فالتوسل إلى الله تعالى بهذا الاسم من أسباب الإجابة.

ثالثًا: هذا الرجل كان مسافرًا، والسفر غالبًا من أسباب الإجابة، لأن الإنسان في السفر يشعر بالحاجة إلى الله ﷻ والضرورة إليه أكثر مما إذا كان مقيمًا في أهله، لاسيما في الزمن السابق وأشعث أغبر كأنه غير معني بنفسه كأن أهم شيء عنده أن يلتجئ إلى الله ويدعوه على أي حالٍ كان هو سواء كان أشعث أغبر أم مترفًا، والشعث والغبر له أثر في الإجابة كما في الحديث الذي روي عن النبي ﷺ أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا عشية عرفة يباهي الملائكة بالواقفين فيها فيقول: «**أتوني شعثًا غبرًا ضاحين من كل فجٍ عميق**».

هذه الأسباب لإجابة الدعاء لم تجد شيئًا، لكون مطعمه حرامًا، وملبسه حرامًا، وغذي بالحرام، قال النبي ﷺ: «**فأنى يستجاب له؟**»؛ فهذه الشروط لإجابة الدعاء إذا لم تتوافر فإن الإجابة تبدو بعيدة.

فإذا توافرت ولم يستجب الله للداعي، فإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ﷻ ولا يعلمها هذا الداعي، فعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، وإذا تمت هذه الشروط ولم يستجب الله ﷻ؛ فإنه إما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخرها له يوم القيامة فيوفيه الأجر أكثر وأكثر، لأن هذا الداعي الذي دعا بتوفر الشروط ولم يستجب له ولم يُصرف عنه من السوء ما هو أعظم، يكون قد فعل الأسباب، ومُنع الجواب لحكمة فيعطى الأجر مرتين؛ مرة على دعائه، ومرة على مصيبته بعدم الإجابة، فيدخر له عند الله ﷻ ما هو أعظم وأكمل.

ثم إن المهم أيضًا أن لا يستبطئ الإنسان الإجابة، فإن هذا من أسباب منع الإجابة أيضًا، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يَعجل**»، قالوا: كيف يعجل يا رسول الله؟ قال: «**يقول: دعوت، دعوت، دعوت فلم يستجب لي**»، فلا ينبغي للإنسان أن يستبطئ الإجابة فيستحسر عن الدعاء ويدع الدعاء، بل يلح في الدعاء، فإن كل دعوة تدعو بها الله ﷻ فإنها عبادة تقربك إلى الله ﷻ وتزيدك أجرًا، فعليك يا أخي بدعاء الله ﷻ في كل أمورك العامة والخاصة الشديدة واليسيرة، ولو لم يكن من الدعاء إلا أنه عبادة لله ﷻ؛ لكان جديرًا بالمرء أن يحرص عليه، والله الموفق.

لذلك أُثر عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، أنه كان يقول: "إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكني أحمل همَّ الدعاء"، وهذا من ثقته بإجابة الرب –جلَّ جلاله– ودعاءه، ينبغي لنا أن نعوِّد أنفسنا لاسيما معشر الحضور الكرام الدعاء لمن هم في أشد الحاجة إليه؛ كالدعاء لمن توفاهم الرب –جلَّ جلاله– من الوالدين، أو ذوي القرابة أو الصحابة، ممن لهم حقٌّ علينا من قرابتنا أو أصحابنا، فينبغي لنا أن لا ننسى هؤلاء بالدعاء الصالح،

والنبي ﷺ لمَّا ذكر ما ينفع الرب -جلَّ جلاله- بالعبد بعد موته، قال: «**أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»؛ «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من علمٍ نافع**»، أو ذكر النبي ﷺ قال أهل العلم: أيسر الأمور التي لا ينبغي للإنسان أن يتحجج بها، بحيث يقول: أنا لا مال عندي أبني له المسجد، أو أحفر له البئر، وإنما أرشد النبي ﷺ إلى أيسر الأمور التي لا تشقُّ على أحد قال: «**أو ولدٍ صالح يدعو له إلا من علمٍ نافعٍ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، فإذا جمع الرب -جلَّ جلاله- هذه الأمور للعبد بأن وهبه العلم النافع، ووفَّقه للدعوة إلى الله ﷻ، وجعله ابنًا بارًا بأبيه فهذا من أعظم ما يعود على هذا الأب بالخير، أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإياكم بما استمعنا إليه، وأن يرزقنا العلم النافع، وأن يهدينا للعمل الصالح، وأن يُعيننا على القيام بما علمنا ربُّنا -جلَّ جلاله- من السمت الحسن، والدل الذي يدل الناس على أثر هذا العلم، وأختم بما ابتدأت به من شكر الله ﷻ وحُسن الثناء عليه، وتوجيه الشكر لأهل هذا المسجد المبارك، وفي مقدمتهم إمام المسجد وفقه الله تعالى، ولوصية خولة دخيل الجسار -رحمها الله تعالى-، ولكم جميعًا أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإياكم بالعلم النافع، وأن يجمعنا وإياكم في مواسم الخيرات، وصلى الله وسلم على النبي الكريم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين.